مساجد القاهرة ومدارسها

« المدخل »

تأليف الأستاذ الدكتور احمد فكرى

عرض وتعريف الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

استقبلت المكتبة العربية الحديثة منذ شهور قلائل كتاباً كانت فى أشد الحاجة اليه ، ذلك هو المجلد الأول من كتاب الأستاذ الدكتور أحمد فكرى ، أستاذ الحضارة الاسلامية بجامعة الاسكندرية ، عن مساجد القاهرة ومدارسها . والحقيقة أن الكتب الخاصة بالآثار العربية نادرة أو غير موجودة فى المكتبة العربية القديمة ، وما كتب عن الآثار عبارة عن قطع متناثرة فى المصادر التاريخية وغيرها . أما الدراسات العربية الحديثة فى آثارنا العربية فما زالت فى دور النشأة ، ولم تأخذ نصيبها الذى نتمناه لها بعد . وهنا نحب أن نذكر أن الدكتور فكرى يعتبر من أوائل الذين اهتموا بالآثار العربية ، ومن المنشئين لهذه الدراسة . ونكتفى بالاشارة الى كتابه عن « مسجد القيروان الجامع » الذى نشر فى القاهرة سنة ١٩٣٦ . هذا فى الوقت الذى اهتم فيه الأوروبيون والمستشرقون منهم بدراسة الآثار العربية الاسلامية منذ أكثر من قرنين .

والكتاب حسب المشروع الذى رسمه الدكتور فكرى سيكون موسوعة كبرى فى الآثار والعمارة العربية فى القاهرة – أى فى مصر . والآثار هى العنصر المادى الملموس الذى يجسم الحضارة العربية . والمجلد الأول الذى نقدمه هو « المدخل » لهذه الموسوعة ، وهدفه التمهيد لدراسة الآثار العربية فى مصر والعالم العربى ، والتعريف بخصائص العمارة العربية الاسلامية تعريفاً يبرز مميزاتها الأصيلة ، وسماتها الحقيقية النابعة من أرض العرب ، ومن مجتمع

العرب ، ومن نفسية العرب ، ومن التقاليد والعادات العربية العريقة . وذلك على عكس ما يدعيه بعض المشتغلين بالآثار العربية من المستشرقين — عن غرض أو عن حسن نية — ، أو الذين انساقوا وراء دراساتهم المراقة دون أن يعرفوا إلى أين هم سائرون .

ولقد قسم الدكتور فكرى « المدخل » الى ثلاثة أبواب تنقسم الى فصول عشرة :

والفصل الأول من الباب الأول عرض للدراسات الآثار العربية التى قام بها المستشرقون باللغات الأوروبية المختلفة . وهذا الباب له أهميته الكبيرة فى دراسة المصادر والتعريف بها . وأهم ما فيه نقد بحوث المستشرقين ، والتنبيه الى ما حوته من أخطاء أو انحرافات : كالأخطاء الناتجة عن الجهل باللغة العربية ، وعدم ادراك أصول الشريعة الاسلامية ، والتحيز الذى يهدف الى افكار أفضال العرب ، والاستناد الى الأخبار التى لم تثبت صحتها . وضرب الدكتور فكرى الأمثلة العديدة على هذه الاتجاهات المغرضة عند « كرسويل » و« جورج مارسيه » و« ديولافوا » ، وبين هدفهم الرامى الى اثبات أن تخطيط المسجد مأخوذ من تخطيط الكنيسة ، وأن المبانى الاسلامية منقولة عن المبانى القديمة . كما أن بعضهم يهدم فكرة وحدة التعبير الفنى العربية بالبحث عن الأصول والعناصر المختلفة فقط (ص ١٩) .

وفى الفصل الثانى فلسف الدكتور فكرى دراسة الآثار فى نظريات أربعة :

١ — نظرية الأصول والمصادر : ويقضى أن يراعى فيها أن الفنون لم تكن مجهولة فى بلاد العرب قبل الاسلام ، وان الشكل الخارجى غير مهم فالعبرة بالجوهر والوظيفة ، وأن تراعى الصلة التاريخية على أسس سليمة .

٢ — نظرية الاستنباط : ومجملها أن العمارة ليست محاولات لحل مسائل هندسية ، أو تجسيم لتعبيرات واتجاهات ، ولكنها ترتبط بأسباب

الحياة وأغراضها ، وظروفها المختلفة : بمعنى أنها تخضع لحاجات الانسان تبعا لظروفه المادية . وترتبط بعملية الاستنباط هذه عمليتان ، هما : الاشتقاق والاقتباس .

٣ — نظرية التطور : وهى حلقة من حلقات الاقتباس والاستنباط فالأشياء المقتبسة لم تستقر فى الفن الاسلامى على حالها ، بل تبعت قانون النمو والتطور حتى كونت مجموعة جديدة من الأساليب الزخرفية والعناصر المعمارية وهى التى حددت خصائص الفن العربى .

٤ — نظرية الوحدة العربية : فالفن العربى من الخليج الى المحيط يكون وحدة رغم شدة تنوعه فى الزخارف الهندسية والكتابة الزخرفية . فهذا التنوع أشبه باختلاف اللهجات بالنسبة للغة البلاد العظمى — اللغة العربية . وهذا يعنى ضرورة أن تشمل تسميته صفة العروبة : فهو الفن العربى قبل أن يكون الفن الاسلامى . فالفضل للعرب فى انتشاره ، اذ « ينفرد العربى بخياله الهندسى الذى ينصب على الكتلة فيقسمها ويجزؤها ويحولها الى خطوط ومنحنيات تتكرر ، وتتعاقب وتتبادل ، وتمتد الى مالا نهاية ، حتى لا يكاد الناظر اليها يحدد بدايتها أو نهايتها » (ص ٤٥) .

والخلاصة أن الفن الاسلامى نشأ نتيجة لدخول العرب فى الاسلام . واستخدامهم كل ملكاتهم العقلية والخيالية والشعورية فى خدمة هذا الدين .

ودرس الدكتور فكرى فى الباب الثانى فى الفصل الرابع عواصم مصر قبل انشاء القاهرة من الفسطاط الى العسكر والقطائع . والفكرة الرئيسية هنا هى أن المصريين فصموا روابطهم بالماضى من حيث اللغة والدين والتقاليد ، وكذلك من حيث روابط الفنون التى اتخذت الطابع العربى . ويتبع ذلك بدراسة مسجد عمرو ، أقدم نماذج العمارة الاسلامية فى مصر : تاريخه ، والآثار المتخلفة منه ، وزخرفته ، وتخطيطه . وينقد الدكتور فكرى مشروعى كرسويل لرسم تخطيط المسجد ، ويبين كيف أنه تصرف فى النصوص فأولها تأويلا لا يتفق مع حقيقتها . وينتهى هذا الفصل بمشروع تخطيط له

استخدم فيه روايات المؤرخين كما استعان بنتائج الدراسات الأثرية . والفصل الخامس دراسة مشابهة خاصة بالمسجد الطولونى ، تناولت تاريخه الذى يدل على أنه احتفظ بمعظم عناصره القديمة ، وتخطيطه البديع ، وعمارته ذات الدعامات والعقود التى سمحت بارتفاع السقف الى عشرة أمتار ، ومئذنته ذات السلم الملتف حولها من الخارج . وعناصره المعمارية وأهمها الدعامة ، العقد المدبب وهما أول مثل معروف من نوعهما (ص ١١٩) ، وعناصره الزخرفية فى اطارات الدعامات وتيجانها ، وتيجان الطاقات والنواقد ، والازارات التى تعلو رؤوس العقود .

والعناصر الزخرفية تتميز بأسلوبها المبتكر ، وأشكالها الهندسية ، وخاصية الخيال ، وخاصية التكرار ، وخاصية كراهية الفراغ ، وكثرة استخدام الخط الكوفى فى الزخرفة . وهذه كلها نبتت من بيئة الأعراب ، وثروة خيالهم ، وتأثرت بعقيدتهم الدينية ولغتهم (ص ١٣١) .

وتناول الباب الثالث تخطيط المساجد السابقة على انشاء القاهرة . والفصل السادس منه مخصص للمسجد النبوى بالمدينة ، أول مسجد أقيم فى الاسلام . ويوضح الدكتور فكرى التشابه بين تخطيطه وتخطيط جامعى عمرو وابن طولون ، وينقد رسم كرسويل التخطيطى ، ورسم بوتى Pauty ، كما يبين أخطاء محمود عكوش ، ومجهودات سوفاجيه وأخطاءه . وأخيرا يقدم رسمه التخطيطى للمسجد . ويتناول الفصل السابع المساجد الجامعة الأولى فى البصرة والكوفة ، كما يتناول مساجد العصر الأموى فى القيروان والشام والعراق كالمسجد الأقصى ، ومسجد واسط ، والجامع الأموى بدمشق ، ومساجد بادية الشام ومنها مسجد بصرى ، ومسجد حران الذى عجز كرسويل عن رسم تخطيط له فرسمه الدكتور فكرى (ص ٢٢٦) . ويحتوى الفصل الثامن على دراسة لمساجد القرنين الثانى والثالث للهجرة ، فى المشرق العربى مثل مسجد المنصور ببغداد ، ومسجد الأخيضر ، ومسجد الرقة ، ومسجد سامرا ، ومسجد أبى دلف ، وفى الأندلس مثل مسجد قرطبة ، وفى المغرب مثل مسجد سوسه ومسجد رباطها ، ومسجد بوفتاته ، ومسجد

الزيتونة . ولقد رسم الدكتور فكرى رسوما تخطيطية دقيقة لهذه المساجد ، مبنية على دراسة المصادر التاريخية ، وعلى نتائج الأعمال الأثرية التى قام بها بنفسه فى البلاد التونسية .

ويلخص الدكتور فكرى نتائج دراسته فى الفصلين الأخيرين ، ففى التاسع منهما يفند آراء المستشرقين التى تهدف الى إثبات أن الجامع منقول عن المعابد الفرعونية أو قاعات الاستقبال العامة الرومانية أو القصور الفارسية أو الكنائس أو حتى المعابد اليهودية — كما سمح خيال بعضهم (ص ٢٨٨) . ويبين أن تخطيط المسجد نابع من طريقة الصلاة الاسلامية ، وهذا موضوع الباب العاشر والأخير : فتحديد اتجاه القبلة وتخطيط جدار القبلة هما العنصر الأول فى تخطيط المسجد . وهذا ابتكار جديد من غير شك فى فن العمارة . فجدار القبلة هو المركز الذى تتشعب منه عناصر التخطيط . وهذا يعنى خطأ فكرة المستشرقين القائلة ان محور تخطيط المسجد هو الخط الممتد من المحراب الى النقطة التى تتوسط الجدار المقابل له كما فى الكنيسة (ص ٣٠٠) . ويخضع بيت الصلاة لنظام رفع الظلة عليه ، ويتسع أو يضيق حسب الارتفاع ؛ وعلى ذلك فليست هناك نسبة بين طول جدار القبلة وعمق بيت الصلاة . أما حكمة اتساع اسكوب المحراب فلكى يتضمن أكبر عدد من المصلين فى الصفوف الأولى ، وللصف الأول فضل كبير فى الصلاة ، ثم لأنه مكان المحراب والمنبر والمقصورة ، وهى عناصر هامة فى المسجد اقتضت زيادة اتساع هذا الاسكوب . وأخيراً يلخص الدكتور فكرى آراء أولئك الذين يقسمون المساجد الى ثلاثة أنواع : عراقية ، وسورية ، ومغربية أندلسية ؛ ويبين وحدة الفن العربى (ص ٣١٢) . ويثبت أن تخطيط المسجد الجامع نظام أصيل فى تاريخ العمارة ، وأنه استحدث فى السنة الأولى للهجرة عندما بنى الرسول مسجده (ص ٣١٦) .

هذا عرض سريع لبعض ماحويه مدخل مساجد القاهرة ومدارسها ، وهو كتاب لاغنى للمشتغلين بالتاريخ الاسلامى ، والحضارة العربية ، وطلابها

والمهتمين بها ، عن الاستفادة منه . ولا يسعنا إلا أن نهنىء الأستاذ الدكتور فكرى على هذه الدراسة التي تدل على سعة العلم وكثرة الاطلاع ، وتتميز بإمعان الفكر ودقة الملاحظة . وأملنا أن ينتهى – وهو يعمل جاهدا – من إخراج بقية أجزاء موسوعته في القريب العاجل – إن شاء الله .